# فصل تمهيدى

## السياسة السوفيتية تجاه فلسطين ، طبيعتها ، وأهدافها ، قبل عام ١٩٤٨

لعل من أصعب ما يواجه الباحثين فى القضية الفلسطينية هو محاولة تفسير وتعليل الموقف السوفيتى المتذبذب حيناً ، والمتناوئ فى معظم الأحيان ، لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، ما عدا المواقف الرسمية فى الأمم المتحدة ، أو ما تنشره وكالات الأنباء أو الصحف السوفيتية ، وكلها تبرز وجهة نظر السوفييت الرسمية .

والمعروف أن للسوفييت سياسة أخرى غير معلنة ، وهى تلك التى تعنى ركوع العرب تماما للاتحاد السوفيتى الذى يسخر كل إمكاناته وعملائه لهدم بناء السلام فى منطقة الشرق الأوسط[1] ،وهو مايذكرنا بموقف السوفييت من حرب عام ١٩٦٧ ، والتساؤلات التى أثيرت حول أسرار هذه الحرب .. ولماذا سمح السوفييت بدخول مصر هذه المغامرة ؟ ولماذا أطلقوا صفارة بدء المباراة عندما

(١) من خطاب الرئيس السادات مؤخراً أمام مجلس الشعب بمناسبة افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة .

نقلوا للرئيس عبد الناصر معلومات مثيرة عن الحشود الإسرائيلية المتأهبة لغزو سوريا ؟ وهل كانت هذه المعلومات صحيحة ؟

وبافتراض أنها صحيحة .. فهل تستدعى كل ماحدث وتتسبب فى الكارثة الخطيرة لمصر وللعرب ولقضية فلسطين نتيجة لهذه الحرب ؟ ولماذا حال السوفييت بين مصر وبين التمتع بالمبادأة فى أواخر مايو ١٩٦٧ ، عندما أيقظ السفير السوفييتى الرئيس عبد الناصر فجراً ليبلغه رسالة من موسكو تطلب منه التريث والانتظار ؟ وهل كان السوفييت من السذاجة بحيث إنهم خدعوا فى نوايا إسرائيل وقدراتها العسكرية ومدى معاونة الولايات المتحدة لها ؟ ولماذا أراد السوفييت لمصر وحدها أن تحتمل أعباء المشكلة الفلسطينية لحماً ودماً وعظماً ؟

**قد تحير هذه الفقرات الافتتاحية والتساؤلات القارئ المصرى والعربى ، الذى كان إلى عهد قريب ليست لديه سوى معرفة وجه واحد للعملة عن السياسة السوفييتية وماجرته — ولاتزال — من نتائج بالغة الخطورة على صعيد القضية الفلسطينية ، ومع ذلك فلا يكفى مجرد القول بأن السوفييت لديهم مبرراتهم بالطبع ، لكننا نجد من الواجب أن نتعرض للصورة السوفييتية عن قرب بقدر المستطاع ، لما تمثله العلاقات السوفييتية العربية من اهتمامات السياسة السوفييتية ، وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية والفترة السابقة .**

فمن الثابت أن السوفييت يقفون دائماً موقفاً مناوئاً للأديان السماوية حتى اليهود السوفييت قد لاقوا الاضطهاد منذ قيام الثورة الشيوعية ، وقد بلغ هذا الاضطهاد قمته عشية الحرب العالمية الثانية حينما أعدم ستالين عام ١٩٣٧ بعض الزعماء اليهود هناك ، ومن الواضح أن كثيراً من اليهود السوفييت قد انزعجوا من التحالف « النازى الروسى » سنة ١٩٤٠ إزاء الهجوم النازى على

الديانة اليهودية ، والذى كان إنجازاً أساسيًّا للرايخ الثالث ؛ ومن ثم فقد ساعد السوفييت الملحدون حلفاءهم السياسيين الجدد فى حربهم على الأديان ، وحتى عندما غزت جيوش هتلر الأراضى السوفييتية كان اليهود السوفييت أيضاً هدفاً للوحشية النازية ، فقتل مئات الألوف ، وأثناء سنوات الحرب كان الذعر الألمانى المصحوب بالاضطهاد السوفييتى هو السمة الملحوظة ، وكانت النتائج طبقاً للبيانات السوفييتية الرسمية فقدان مايزيد على ٢٠ مليون نسمة نتيجة للتطهير الذى قام به ستالين ، وتحت تأثير الهزائم الرهيبة التى حدثت فى المراحل الأولى للحرب سمح ستالين لليهود السوفييت برفع أصواتهم كشعب مرة ثانية ، وبذلت الحكومة السوفييتية جهداً كبيراً لكى تنشر تعاطفاً وتعزيزاً ليهود العالم فى جهودهم للحرب بندائهم للتضامن اليهودى . وفى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٤١ سمع نداء لليهود فى العالم لأول مرة من صوت راديو موسكو ، يخاطبهم على أنهم الإخوة اليهود ، وفى هذه الإذاعة قال الشاعر اليهودى السوفييتى بيرتس ماركش : « إن كل اليهود أصبحوا الآن شعباً واحداً . وجيشاً واحداً ، وإن المحيط لم يعد يقسمهم » وفى نفس اليوم أعلن الشعراء والفنانون والأكاديميون وضباط الجيش اليهود السوفييت بفخر انتسابهم إلى الشعب اليهودى ، الذى اختاره النازى هدفاً رئيسيًّا لكراهيتهم ، وللمرة الأولى منذ عام ١٩١٨ عاد صوت جميع اليهود الروس إلى التردد والظهور تحت شعار : « مع كل إخواننا اليهود فى كل بقاع الأرض » ، وفى أبريل سنة ١٩٤٢ جاء فى موسكو إعلان تكوين لجنة « اليهودية المناوئة للفاشية » وكان هدفها الرئيسى تأكيد التضامن اليهودى ، وكان لقصيدة الفنان والشاعر انزى فيفر التى نظمها وقت الحرب بعنوان : « أنا يهودى » كان لها رنة النظم اليهودى ، وتظهر بوضوح المكابيين كأبطال ورموز للتمرد الوطنى

اليهودى . وفى عام ١٩٤٣ ذهب اثنان من كبار الشخصيات اليهودية السوفييتية تصحبهما «البركات الشخصية» لستالين ، ذهبا إلى الولايات المتحدة وإنجلترا للمطالبة بالدعم اليهودى الفعال للحرب السوفييتية . وفى لندن صرح أحدهما أن الصهيونية كانت فكرة عظيمة برغم أنها لم تكن تصلح للتطبيق على اليهود السوفييت ، لما لهم من بذور فى روسيا . وعند عودة هذين الزائرين الكبيرين إلى موسكو فى ديسمبر ١٩٤٤ أرسلا تحياتهما بمناسبة عيد ميلاد دكتور وايزمان السبعين .

وفى فلسطين كان الحزب الشيوعى الفلسطينى قد تلقى تعليمات جديدة ، وأعلن استعداده للتعاون مع الهستدروت «اتحاد العمال اليهود» فى النضال من أجل تنفيذ الكتاب الأبيض البريطانى لعام ١٩٣٩ ، وكان رئيس اللجنة اليهودية المناوئة للفاشية قد كتب فى نوفمبر ١٩٤٤ أن الشعب اليهودى له الحق فى الاستقلال السياسى فى فلسطين ، وأنه لا يمكن لأى شخص محب للحرية أن يكون له اعتراض على استمرار اليهود فى فلسطين ، وفى تطوير وطنهم الذى أقاموه من خلال العمل الشاق على أساس على الحكم الذاتى .

وفى مؤتمر نقابات العمال العالمى فى لندن فى فبراير ١٩٤٥ وافق الوفد السوفييتى على قرار ينص على أن الشعب اليهودى يجب تمكينه من مواصلة إعادة بناء فلسطين وطناً قومياً . والأكثر من ذلك أن صحيفة النجم الأحمر فى موسكو قد أصدرت مقالة تنتقد بلهجة شديدة جامعة الدول العربية فى ١٣ يوليو ١٩٤٥ ، وبعد ذلك بيومين أذيعت محتوياتها من راديو موسكو باللغة العربية .

وهكذا يمكننا الاستدلال على أن الكتابات العربية فى الاربعينات والخمسينات التى كانت تؤكد على استمرار الصورة السلبية تجاه اليهود فى فلسطين

فى هذه الفترة ، كانت كتابات تنقصها الدقة ، بل إن هناك آراء سوفييتية كانت ترى فى يهود فلسطين آنئذ تقدميين وثوريين وبروليتاريين فى مقابل أنظمة الحكم الرجعية فى الشرق العربى . ولم يخف السوفييت إعجابهم بإنجازات الرواد الأول من اليهود فى فلسطين وهو ما يعتبر دليلا مؤكداً على الإهمال السوفييتى للمشكلة الفلسطينية ، وإن الحجة التى تذرع بها السوفييت أن يهود فلسطين يحملون فى طياتهم تنظيماً ذا ملامح اشتراكية تتمثل أساساً فى المزارع الجماعية والتعاونية وبالتالى فإن هؤلاء اليهود التقدميين والمتقدمين فى فلسطين يمثلون تشجيعاً للسوفييت أفضل من العرب المتخلفين والإقطاعيين الأفندية ، ومن هنا فإن الدولة اليهودية المستقبلة تستطيع تحقيق آمال موسكو ومصالحها ، وقد لاحظ السوفييت ذلك أيضاً من خلال زيارة كبار مسئوليهم إلى فلسطين فى هذه الفترة ، وهذه الاتصالات ومانتج عنها من مؤازرة يهود فلسطين على حساب عرب فلسطين تركت انطباعاً لدى الرأى السوفييتى بأن المجتمع اليهودى فى فلسطين ، وما يبشر به أيضاً من نهضة صناعية ، أفضل من الحكومات العربية المتخلفة ، التى تخضع للاستعمار البريطانى وهى بالتالى – أى التجمعات اليهودية – تعتبر حقلا أسهل لنشاط الشيوعية فى بلدان الشرق العربى التى تضطهد الشيوعيين .

وفى يوليو ١٩٤٤ أعلن مالينكوف أن المطالب الإقليمية للشعب اليهودى فى فلسطين يجب أن تلبى ، كما أن ستالين فى مؤتمر يالتا فى فبراير ١٩٤٥ وافق على تقرير الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وعلى فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية . واستمرت هذه السياسة السوفييتية المؤيدة لليهود فى فلسطين على حساب العرب حتى أبريل عام ١٩٤٧ ، حينما عبر السوفييت عن موقفهم الرسمى

أمام الأمم المتحدة ، حيث كانت العلاقات «سمنا على عسل» بين المسئولين السوفييت والمسئولين اليهود فى فلسطين ، وانعكس ذلك على المناقشات فى دهاليز الأمم المتحدة ، ففى شهر مايو من نفس العام أصر المندوب السوفييتى على ضرورة إنشاء دولة مستقلة يهودية دون إبطاء فى فلسطين ، وقد استطاع السوفييت استقطاب الهند إلى جوارهم ، وكانت الهند تعارض التقسيم ، لانها تحس بمرارة تجربته وفى ١٤ مايو ١٩٤٧ أصر المندوب السوفييتى – وهو أندريه جروميكو – على إنشاء دولة يهودية فى فلسطين قائلا : «إنه من غير المعقول أن ينكر على الشعب اليهودى حقه فى تحقيق آماله فى إنشاء دولته الخاصة به» .. وهو الحل الذى فضله السوفييت واختاروه بديلا لإنشاء دولة عربية خالصة فى فلسطين ، حيث رفض جروميكو بشدة وإصرار تكوين دولة واحدة يهودية عربية مستقلة ديموقراطية يكون لليهود والعرب فيها حقوق متساوية .

ولم يعط السوفييت قط أى اهتمام لآمال العرب أو حقهم فى فلسطين ، بل إنهم أيضاً عزفوا على نغمة اليهود المشردين فى أوربا ، وإن دولة هتلر وهملر وهيدرنج قد أجهزت على ملايين اليهود ، وأذاقوهم الموت جوعاً وعطشاً ، وأطلقوا عليهم المدافع الرشاشة ، وقتلوهم بفعل الطلقات النارية وبالخنق وبالغاز ، وأشعلت فيهم النيران .

وبالرغم من أن قضية الاضطهاد واليهود المشردين كانت قضية أوربية بحتة ، فإن جروميكو قد استغلها لمصلحة اليهود فى فلسطين ، وعلى حساب العرب قائلا : «إن دولة أوربية واحدة لم تنهض للدفاع عن اليهود» . وتلا ذلك إعلان السوفييت موافقتهم على أن تقسيم فلسطين ، إلى دولتين عربية ويهودية ، باعتبار ذلك خطوة عظيمة إلى الأمام ، وبالطبع كان السوفييت يضعون مصلحة

اليهود أولا نصب أعينهم بالرغم مما ذكره جروميكو – ذرًّا للرماد فى العيون – مثل قوله : « تعاطف شعوب الاتحاد السوفييتى الدائم مع المصالح القومية للشعوب العربية » ولكن شتان بين الكلام والتطبيق ، فالسوفييت كانوا لا يهدفون بالطبع إلى تحقيق المصالح القومية للشعوب العربية . . إنما كان هدفهم الحقيقى هو إبعاد أو إضعاف النفوذ البريطانى ، كما أن المصالح الحيوية للسوفييت فى هذه الفترة كانت تأمين حدودهم الجنوبية . . وبالتالى قلب الأوضاع فى العالم العربى الذى لم يكن للشيوعية أى أمل فى الوصول إليه مباشرة إلا بضرب بريطانيا أولا لكى تنسحب من المنطقة ، ثم خلق الاضطرابات وجعلها مبرراً للتدخل ، وذلك بالتأييد التام لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، يساندها السوفييت أنفسهم ، وتأسيساً على ذلك لم يصوت السوفييت لصالح التقسيم فحسب ، بل إنهم انحازوا تماماً بتعصب متزايد لتأييد الدولة اليهودية فى فلسطين ، وصدر قرار تقسيم فلسطين « بمباركة » السوفييت ومؤازرتهم حتى إن مصر قد انتقدت آنئذ الموقف السوفييتى المؤيد – على طول الخط – لليهود عشية التقسيم ، وخلال مناقشته وبعد صدور قراره ، فقد تضايق المندوب المصرى فى الأمم المتحدة من هذا الموقف السوفييتى المالئ لليهود على حساب العرب ، فأظهر تبرمه بقوله : « إن المندوب السوفييتى قد أدلى هنا بنظرية مختلفة كل الاختلاف عن مساهمة فلسطين فى حل مشكلة يهود أوربا بالهجرة إلى فلسطين » .

وعموماً فإن أحداث هذه الفترة – التقسيم وماتبعه – قد أوضحت أن السوفييت ما كانوا يهتمون بإيجاد حل عادل لمشكلة فلسطين بقدر ما كانوا يجرون نوعاً من « التسخين السياسى » من أجل تحقيق مصالحهم ، وذلك بوضع كافة العقبات أمام الولايات المتحدة .. كما هو شأنهم حاليًّا حيث يستقطبون بعض

الدول العربية التى ترفض جهود السلام بتوريطها كى ترتمى فى أحضان السوفييت ، بالإضافة إلى أنهم أيضاً يبعدون – بجميع الوسائل – بين المسئولين الفلسطينيين وبين الإنصات لصوت ضمائرهم فى إنقاذ الشعب الفلسطينى الشقيق والعريق من محنته داخل إسرائيل : التشريد والاعتقال والسجن ، وخارج إسرائيل بالإبقاء على دعوة السلام التى أيدها الرأى العام العالمى ، ومنذ عام ١٩٤٧ والسوفييت يبتعدون عن كل المحاولات التى تبذل من أجل إحلال السلام بين العرب وإسرائيل أو إيجاد حل للقضية الفلسطينية . ومهما تذرع السوفييت بحجج لتبرير تصرفاتهم فالملاحظ ، من منظورنا ، ابتعادهم تماماً عن كل اللجان والهيئات التى تخفف العبء عن الشعب الفلسطينى طوال فترة تشرده ، ومنها وكالة غوث اللاجئين التى لا يسهم السوفييت بأى نصيب فيها ، أما بين الدول العربية وإسرائيل فلم يشارك السوفييت فى لجان الهدنة عام ١٩٤٩ ، ولا فى لجنة التوفيق الدولية التى تكونت لكى تعمل على تنمية العلاقات الحسنة بين إسرائيل والعرب ، ووضع الأماكن المقدسة تحت إشراف الأمم المتحدة والسماح لمن يرغب من اللاجئين فى العودة إلى ديارهم أو دفع التعويضات لمن لا يرغبون فى العودة أو من أصيب بضرر من جراء فقد ممتلكاته .

هكذا كان موقف السوفييت من المشكلة الفلسطينية وواضح من أحداث هذه الفترة التى شملت الحرب العالمية الثانية وماقبلها والفترة اللاحقة ، واضح أن تصعيد هذه المشكلة على النحو الذى سارت عليه كان يتواءم مع المصالح السوفييتية ويتنافى تماماً مع حقوق الشعب الفلسطينى .

كذلك يعتبر الاتحاد السوفييتى فى هذه الفترة أقوى سند للدولة اليهودية ،

حتى إنه قبل عشرة أيام من إعلان دولة إسرائيل وعلى وجه التحديد فى ٤ مايو ١٩٤٨ أعلن أندريه جروميكو المندوب السوفييتى فى الأمم المتحدة أن ذاك أنه توجد دولة يهودية بالرغم من محاولات بلاد معينة لإعاقة تنفيذ التقسيم ، «وهو يعنى بالطبع الدول العربية ومعارضى التقسيم» وفور قيام دولة إسرائيل قدم السوفييت اعترافهم القانونى بالدولة اليهودية ، وأصبح الاتحاد السوفييتى أول دولة تعترف بإسرائيل اعترافاً صريحاً ومباشراً وقانونيًا ، بعكس ما ترى قطاعات عريضة من الرأى العام العربى من أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى اعترفت أولا ، لأن اعتراف أمريكا كان مجرد اعتراف بالأمر الواقع ، أما السوفييت فهم أول من اعترفوا قانوناً بالدولة الجديدة فى العالم كله .

وعلى صعيد الدول العربية وقف الزعماء العرب كلهم بلا استثناء ، فى جبهة مفككة يعوزهم التنظيم ويفتقرون إلى التكامل النظامى ، وركبت الأوهام رجال السياسة الذين كان ينقصهم الاحتكاك باليهود ، وكان على العرب أن ينتظروا ثلاثين عاماً كاملا حتى جاءت الجهود المصرية من أجل إقرار السلام فى المنطقة ، واتسمت هذه الفترة بالتناقض الحاد بين الدول العربية فى الحساسيات والتقديرات ، باستثناء حرب ١٩٧٣ التى قامت فيها العسكرية المصرية بالجهد الأكبر والعبء الاكبر أيضا – وطوال الحروب السابقة على حرب ١٩٧٣ لم يتخذ العرب الأهبة ، ولم يجروا استعداداً ولم يضعوا أية خطة جادة لمتطلبات الحروب ، ولم يكن همهم الأول إنزال الهزيمة بإسرائيل .. وإنما مراقبة بعضهم بعضاً تربصاً وخيفة .

والجيوش العربية هى الأخرى – باستثناء جيش مصر عام ١٩٧٣ – كان تكوينها أصلا معداً للقيام بالأعمال البوليسية ، وفرض السيطرة المظهرية ،

ووصلت مشكلة فلسطين إلى تفاقمها تحت سمع وبصر القادة العرب وهم عاجزون .. عاجزون عن إيجاد الصيغة التى تحفظ للشعب الفلسطينى حقوقه ، وتحفظ للعرب كرامتهم .. حتى السوفييت الذين لجأ إليهم القادة العرب وارتموا فى أحضانهم – قد عجزوا عن الوصول إلى منتصف الطريق الذى نجحت مصر فى الوصول إلى نهايته ..